من تراب الطريق (٣٤٢) الخاتم والحديث الرابع (*)

طفنا مع شاعرنا الحكيم محمد عبدالله محمد، مع مقتطفات من قصيدته «الخاتم» بديوانه «العارف» .. بدا لى وأنا أعيد قراءة القصيدة مرة فأخرى، أن الشاعر الفيلسوف يستخدم لغة الرمز فى مخاطبة الدنيا وما تموج به من أسرار، وتتأرجح فيه بين الإقبال والإدبار .. فى كل حديث من الأحاديث الأربعة للقصيدة يتناول الدنيا من زوايا مختلفة، وحيرة عقله أمامها منذ غادره الطفل الذى كان بداخله فجعل يتمعّن ويغرق فى التأمل فى رحلة العمر التى ترد عليها الأيام .. وتتناوبها وتتناوب نفسه وعقله صنوف الأحوال .. ما بين طفولة غادرت، وحماس فى بدايات الحياة تطاير، وعقل عجز عن استبعاد مالا قلب له يرق ويألم، وغيبٍ ذى دهاء تصعب الإحاطة به، وحنجرة تحجر غناؤها فصار شدوها يعوى كما تعوى الرياح، وقلبٍ جفت ينابيعه وعواطفه، وثمارٍ لم يعد لها طالب يقطفها، ونفسٍ تخادع نفسها فتوارى قلة نصيبها من الدنيا بنقص غيرها .. فى دنيا لا يغرها ولا يدنيها المديح، ولا تنفع فى صيدها شباك، غرورة لا طعم للعيش بدونها .. لا يجد لحيرته مرفًا ولا شاطئا، فيعود إلى البحر ولجته كما رأينا فى الحديث الثالث، يغوص ليفهم .. فلا فهم فى الطفو

(*) المال١٩/ ١٠/ ٢٠٠٩

على سطحه ، يضرب بعقله باحثا عن إجابات لأسئلةٍ شتى .. حتى يقف فى نهاية الحديث الثالث وقد ازدادت حيرته فيكتشف أنه يعيش كلاما فى كل حقبة ، بينما القيم يتقلص ظلها ، وهو كالظل على مسرح الحياة مدسوس ضمن روايةٍ ، ليدخل من بعد ذلك إلى الحديث الرابع والأخير فى القصيدة .. فيصور نفسه كأصبع كفٍّ دار حولها وغطاها خاتم .. فكيف يستطيع أن يرى شيئا بخارج المحيط الكثيف ، وكيف بعينه تصور له أنه المضيف فى هذه الدنيا ، بينما هو ضيف تملؤه الأطماع وتزيف عليه الرؤية ، حتى يرضى الذى مِنْ ظُلْمنا إياه بات ظالما يصول بدعوى العدل ممتشقا سيفه .. وكيف جعل يملأ روضته التى أجدبت وجفت بأقزام العواطف التى لا تصنع دوحة ، ولا ثمرة لها إلاّ الشكل الذى يغر قلبه ويعزيه ساخرًا من شكواه أن حديقته خالية من الخصب ، وقريحته قد أجدبت .. بينما هذا الجدب قديم لا يطيب له عقل ! فهل يقوى على الاستجابة لقلبه ، ويسلم بعناده وجرأته بينما هو مرتع للجبناء والفضلاء .. يطمع فيه الخاملون ، حتى ليصادفه قبح دعاوى الجهلاء !. ليس أمامه إذن إلاّ أن يتجه إلى نور الله ليصون فى ضيائه نقاءه .. يشهد له أن تعمقه فى ملكوته هو آية ولائه ، كما يشهد له أنه يعوض نقصه بكماله سبحانه وتعالى . يقول شاعرنا الحكيم محمد عبدالله محمد ...

وإصْبَعُ كَفٍّ حَوْلهاَ دَارَ خَاتَمٌ وكيف تَرَى شيئًا بخَارجها كَيْفَا؟
وعَيْنِى كعَيْنِ الخَاتِم الحرَّ داخِلى تَرَاكَ مُضِيفًا صاحِبَ الدارِ لا ضَيْفَا

وإنِّى لأنسى ذَاكَ ساعةَ عَوْدَتِى إلى الناس والأطماع تَمْلؤُنى زَيْفاَ
لِيَرْضَى الذي مِنْ ظُلْمِنَا باتَ ظالمًا يصولُ بَدَعْوى العَدْلِ مُمْتشقًا سَيْفاَ

***

مَلأتُ بأقْزامِ العَواطِفِ رَوْضَتِى فليس بها دَوْح يَطُولُ ولا نَخْلُ
عَلَى أنَّ فيها الشَّكْلَ مازَالَ باقِيًا عَزاءً لقَلْبِى لَمْ يَضِعْ مِنْ يدى الشَّكْلُ
فكيف إذَنْ أشْكُو خُلُوَّ حَدِيقَتِي مِنْ الخِصْبِ والقَزمُ الذى دَاخِلى نَغْلُ؟
تَأمَّلتُ واسْتَنفَدتُ كُلَّ قَرِيحَتِي وَجَدْبِى قَدِيمٌ لا يَطبُّ لَهُ عَقْلُ

***

أتَقْوَى عَلَى أن تَسْتَجِيبَ حَقِيقَةً لقَلْبِكَ لا كالنَّاسِ للغُلَواءَ
فَأنْت عَنِيدٌ لا إخالُكَ سَالِما وأنت جَرِىءٌ مرْتَعُ الجُبَنَاءِ
يَثُورُ عَلَيْك الخَامِلونُ سِيَاسَةً وَيا وَيْلَ مَا تَلْقَى مَنَ الفُضَلاءِ
وأقْبَحُ مَنْ كُلِّ القَبَائِحِ صَادِقٌ تَحَدَّى دَعَاوَى العَقْلِ والعُقَلاءِ!!

***

أصونُ نَقَائِي فِي ضِيَائِك عامِدًا لكيلا تَرى عَيْنى مِكانَ نَقائِى
وأحْسَبَ عُمقِى فى عَلائِكَ شاهِدًا على أنَّنى ماضَلَّ عَنْكَ وَلائِى
وأُلْصِقُ نَقْصِى فى كَمَالِكَ شاهدًا وقَد صَحَّ فَ جَهدِي إليْكَ بَلائِى
أذَاكَ صَحِيحٌ ما وصَفْتُ أمْ الذى وَصَفتُ خَيالِى قُلتُهُ ورِيائى ؟!

*****